



الخميس 24 يناير 2013 م 12:01

حازم سعید :

لعل علامتي التعجب في عنوان المقال توضحان لقوي الملاحظة ما أريد أن أعبر عنه في هذه المقالة ، وخلاصته أنك ترى موافق لكثير من المشاهير علمانيين أو ليبراليين ، أو بلا هوية واضحة ، فلا تستغرب من لغتهم أو نظرتهم للأمور وتقييمهم للمواقف والأشخاص ، أيًا كانت درجات التحول أو التألون أو تباهي المواقف والرؤى بعد الثورة عن قبلها .

ولكن بعض هؤلاء تستغرب جداً لدرجة الذهول أن يكون ما تقرأه من أقوال أو كتابات نابعاً من هؤلاء بالذات ، لما كنت تحس به عنهم من ثقل وزن ( عقلي وثقافي وليس جسماني بالطبع ) .  
ومن هؤلاء الكاتب الأديب بلاط فضل ، الذي قرأت تدوينة منسوبة له على الفيسبوك ، أنه كتبها على التويتر شبه فيها الإخوان في درجة الدنو بالحزب الوطني واستخدم فيها لفظ ( الواطي ) مع اعتذاري لقارئي العزيز أشد الاعتذار وأنا هنا مجرد ناقل ، فتتبعت حسابه على التويتر للأصدام بما قرأت ورأيت من كتابات نقدية وصلت لحد وصف الرئيس مرسى بلفظ " عبد العبيط " وما رئيسنا مرسى على النقد بعزيز ، ولكنك سترى أنه نقد ساخر أقرب للشتمة ، ثم تتبعت مقالات له علىجريدة الشروق ، فهالئني ما تتبعته .

وليس سر الهول والصدمة هو أنه يتقدنا ، فهذا تعودنا وتربيتنا على قبولها في الإخوان ، ومن أهم أدبياتنا ومرجعياتنا التي نستند إليها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدين النصيحة " و " المؤمن مرأة أخيه " و " المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى " . في نموذج ضمن عشرات بل مئات من الأقوال والمعاشرات التي عودتنا على قبول الرأي والرأي الآخر ، وهي حقيقة أعيشها يومياً داخل غرف الإخوان وخارجها ولا أحتاج لأدلة على أنها يماري فيها تعالى وعش بيننا يوماً أو أسبوعاً وأنت ترى ما أzym ، وفيمه بنفسك حقيقة هو أم خيال ؟

ولكن الذي هالني هو أن يقع مثل بلال فضل - والذي كنت أظنه منصفاً راجح العقل - فيما يقع فيه خفاف الأحلام وضياع العقول والنهى ، من سرعة فى إطلاق الأحكام وتقعيد القواعد على غير أساس والتعميم ، وأخطرها الشتيمة والبلاغة فى هذه الشتيمة وهى ما يؤسفنى أن أعبر عنها بأنها ألفاظ تقع تحت بند سوء الأدب ليختلط بينها وبين النقد المشروع ، والنصيحة التي هي فى أضعف درجاتها مستحبة إن لم تكن واجبة .

الذى قرأته للأكاديمى الأديب بلال فضل أزعم أنه يصلح كنموذج ثانى - و كنت تعرضت فى مرات سابقة لكتابات علمانية أخرى لغيره من أمثال الأديب علاء الأسوانى - أقول أنه يصلح كنموذج ثانى لكتابات العلمانية غير المنصفة ، أتعرض له بالقراءة والنقد فى نقاط قليلة موجزة اعتبرها بعض وليس كل ما ينبعى أن يشار إليه ، ولكنى هنا ألفت النظر بعض خصائص المنهج العلمانى عموماً ، وإلا فأنت ستجد عناوين أخرى لن أطرق إليها حتى لا تزيد المقالة طولاً من بعد طول ، مثل طرق الاستدلال والشاهد الذى ينقولها لتأكيد صحة ما يقول ، لأننى بذلك سوف أولف كتاباً وليس مقالة نقدية ، فإلى ما أزيد من النقاط :

## تيارات الشعارات الإسلامية

على عادة الكتابة العلمانية الليبرالية فى إطلاق ألفاظ سيئة على خصومهم لمحاطبة اللاوعي الجماعي عند القارئ وترسيخ مفهوم سيئ عن فكرة أو نظرية أو مجموعة من الناس ، فينصرف الذهن لا إرادياً للمعنى السيئ حين تشير إلى هذه الفكرة أو النظرية أو هؤلاء الأشخاص .

فعلاها الأسواني من قبل حين قال " قبل أن تقطعوا أيدينا " في إشارة إلى تطبيق الشريعة وأنها تعني قطع اليد ، رغم أن هذا الحد لا يكون إلا من ارتكب جريمة السرقة ، إلا أن العنوان الصادم السريع يصرف الذهن ل يجعل هناك ما يصح أن تطلق عليها متلازمة قطع اليد والشريعة .

ووجدت الكاتب بلال حربصاً على متلازمة أخرى بنفس المعنى في إشارته لفصال العمل الإسلامي حيث يدمن - فيأغلب مقالاته التي تتبعتها - التعبير عنهم بأنهم تيارات الشعارات الإسلامية ، فيما تعنيه دلالة لفظ "الشعارات" السيئة عند العقلاء ، حيث أن هؤلاء مجرد أصحاب شعارات و مجرد كلام فارغ من المضمون ، وأنهم "كلمنجية" ، وأنها هنا لا أقع في الخطأ الذي يقع فيه السادة العلمانيون من إطلاق النظريات وتعقيده القواعد الوهنية ، ولكن أسأل أي أحد مرتبط بالقراءة أو الثقافة ، ماذا تعني دلالة أن تشير و تؤكد و توظف

لحفظ أصحاب الشعارات على فضيل بعينه ، وهل السيارات التي توردها بها تعني مجرد تعبيز وتوضيح هوية ، أم أنها تساق في صورة صادمة وصارفة للذهن إلى الدلالة السيئة والمعنوي المحقق والمنتقص ، أنها أرضي بحكم وتقدير هذا الأبي أحد . هذا الكلام الذي أسوقه يدل على طبيعة العقلية التي تتحدث وتورم ذاتها الثقافية وإحساسها بالاستعلاء عن تصفهم بأنهم تيارات شعارات ، مع أنك أنت نفسك بضاعتك كلها عبارة عن كلام ، سواءً مقالات ، أو برامج مرئية ، أو قصص ، أو أفلام ... كله كلام . أما نحن الإخوان ، فعندما قاله الإمام البنا رحمة الله : " نحن قوم عمليون " لو أردت أن تقيس الوزن النسبي لفعاليتنا بجوار كلماتنا فستجد أن الكلام قد لا يتجاوز العشرين في المائة من محصلة حياتنا ... خذ مثلاً هذه المقالة التي أكتبها ، أنا أخص لها من نصف إلى ساعة واحدة فقط أسبوعية أو كل عشرة أيام ، وما عدا ذلك فلن تجده أتكلم ، بل ستجدني إما في قافلة طبية أو معرض خدمة من الخدمات ، أو سعي على حاجة محتاج ، بخلاف علي المهنئ الذي أتكتسب منه قوت يومي ، ولست هنا أركي نفسي أو أقصد شخص حازم سعيد ، ولكنني أتحدث عن غالب حال الإخوان وغالب أشخاصهم ، ورغم ذلك تزكي أنت نفسك وتنقصهم وتصفهم أنهم أصحاب شعارات .

بل إن كثيراً من رموزنا الإخوانية التي نحاول استكتابهم - نحن المرتبطين بالعمل الإعلامي بأي صورة من صوره - نعذر عن ملاحظتهم واستكتابهم ، نتيجة كثرة مشاغلهم وحركتهم بين الناس ، رغم ما يملكون من مهارات ولغة وبلاغة وأدب راقي لو أرادوا ميدان الكلام ، وهم لا يريدون .

تلك ملاحظة أولى عن النفسية التي تؤثر على منهجية الكتابة عند التيار العلماني الليبرالي ، والمعركة التي يبدؤها بوضم الآخر بلفظ يعطيك انطباعاً سلبياً صارفاً ومنذ اللحظة الأولى . ولا أحسبه عند البلاغة الأدباء من أمثال الأسواني أو فضل هفوة أو تصرف غير مقصود .

### الاستخفاف والسخرية ودلائلها

على نفس المنهج يسير الكاتب الأديب بلال فضل في جل مقالاته التي قرأتها ، وكل تدويناته على التويتر والتي جاوز ما قرأته منها أكثر من سبعين تدوينة ، وهذه عادتي قبل أي مقالة في دراسة الحالة أو الشخص أو الموضوع الذي أكتب عنه بصورة شاملة . أقول على نفس المنهج يسير حين يسفر من الرئيس مرسى ومن المسلمين في أكثر من مكان ، حين يتحدث عن عبده العبيط وعبد الغشيم في إيماءات نحو الرئيس مرسى كلها خاطئة وأسرد في النقطة التالية إن شاء الله وجه خطئها - في نظري - ، وأشار في التويتر إلى رابط للمقالة على جريدة الشروق كتب في التدوينة : " قرر د. محمد مرسى أن يستخدم للتعامل مع ملف القصاص والشهداء منهجاً يشتهر بين الناس باسم "منهج عبده العبيط " ثم وضع رابطاً لمقالته بالشروع بعد هذا الكلام ، وأنا نقلت كلامه من التويتر بخطه اللغوي في همزة القطع في لفظ " باسم " كأمانة النقل الدرفي .

وفي مقالة " بأي خلافة يطملون " يتحدث عن عدم إطلاق الإسلاميين لمشاريع حضارية فيستخدم الجملة التالية الساخرة المستخفة بالرئيس مرسى : " حتى ولو كان مشرعوا لاستكشاف النيات النادرة في الصراء الغربية لكي نستخرج منها دواء جديداً، أو مشرعوا فضائياً نوظف فيه قدرات الدكتور محمد مرسى المكوكية " الناساوية " .

ولاحظ بالطبع ربطه الرئيس مرسى بالموضوع والحديث عن قدراته والساخرية من الكلام حول ارتباط الدكتور مرسى بوكالة ناسا من عدمه . ويكتب مقالة تحت عنوان " مولانا التيس " ويكتب تحتها : " ألا ليت اللهم كانت حشيشاً " . ويخاطب المسلمين في أحد تدويناته بالتويتر بقوله : " عزيزي المفترض : قبل أن تستخدم تعابير أسد في وصف شيخك ، فكر قليلاً في مشاعر السيدة والدته " مع ما في هذا الكلام من الشتيمة الشعة لكل أمهات من يطلق عليهم المترضين وباستخدام البلاغة ليصل إلى معنى في غاية الإسفاف . ويكتب في تدوينة للسخرية من المترضين خير الشاطر : " قال يابه علماني الشطارة قال قول حسابي إتهاك " . وكل هذا بخلاف التدوينة التي لفت نظري لأن أثراً بعض كتاباته وأتباع منهجه فيها ، ولم أكن مهتماً بذلك ، والتي وصفنا فيها بالانحدار والتدنى مستخدماً اللفظ الذي سقته في بداية المقالة واعتذر عن لهارئي الكريم .. كل هذا مجرد قطرة من بحر تدويناته الساخرة والمستخفة بالآخرين .

ولا أستطيع للأدباء والكتاب ولا لأصحاب الفكر ، حتى وإن شتمهم بعض المتعلمين أو المتعلمين من المسلمين على حساباتهم الشخصية ، لا أستطيع أن أجد مبرراً لصاحب قيمة أخلاقية أو ثقافية أو فكرية أن يشتم ويسفر بهذه الصورة الغبية ، لأنك تزعم أنك صاحب رأي وفكرة ، فكيف تكون مقارعة الرأي والفكر بالشتيمة والإسفاف الذي يصل لحد شتمك الذي لا تدرى أنهن صالحتين أم غير ذلك وشتيمة تلمجية أنت تعرف أن كثيراً من الأمهات عفيفات عن مثلها .

والأسف فإن هذه هي حقيقة المنهج العلماني الليبرالي في الكتابة ، والذي يعجزه سوق الحجة والبرهان ، فيذهب مذاهباً في الاستخفاف من الآخرين والساخرة منهم ، ودائماً ما رأيت هذا تعبيراً أسوأ عن ضعف الحجة والبرهان لدى الشاتم .

يستوي في ذلك السخرية أو الاستخفاف مع الشتيمة ، ولأشد ما عجبت من شتائم من يطلق عليه كاتب وأديب ، كيف للذوق والبلاغة والأدب أن يؤدوا إلى استسهال للشتيمة بهذا القدر !

أزعم أنها درسة أبدع فيها أحمد فؤاد نجم وتبعه فيها تلامذته من أمثال إبراهيم عيسى أو بلال فضل وغيرهم ، وهي عند ذوي الحس والأخلاق توصمهم وليس تزيينهم وتبعدهم عن مصاف العبدعين ... هذا زعمي والله أعلى وأعلم .

وليس هذا خاصاً بنقدي للعلمانيين والليبراليين ، بل هو ممتد يشمل ما أستطيع أن أطلق عليه حالة " الهيجان والشتيمة " عند بعض من ينتمي إلى الإسلاميين ، ولهذا كثبت عن خطأ منهجهم وأشرت إلى روابط لعن انتقد منهجهم كالعلامة الشيخ محمد بن إسماعيل والشيخ أبي إسحاق الحويني وكلاهما من الرموز السلفية ، وتحدثت من قبل عن عظمة وذوق المنهج الإخواني حين يقول الإمام البنا : " نحن لا نجرح هيئات ولا أشخاص " .

والخلاصة في هذه النقطة هي سهولة الاستعلاء عند العلمانيين والليبراليين مما يوقعهم في انتقاد الآخرين والساخرة منهم والاستخفاف بهم ، وكلها نقاط أزعم أن كتابات بلال فضل وتدويناته تتسم بها .

### المنهج الانتقائي

تعالى لخصيطة أخرى من خصائص المنهج العلماني في الكتابة ، وهي الانتقائية ، وتظهر هنا جلية واضحة في مقالة " بأي خلافة يطملون " ، والتي تعد نموذجاً أروع في الانتقائية عند الكتاب العلمانيين .

انظر إليه وهو يتحدث عن فهمه لدور الخلافة الذي نسب إليها مرجعيتها " عمارة الأرض " لينتقصى لنا فهمه هو ، وهو جزء ولا شك من دور الخلافة الراسدة ، ثم يضرب أمثلة لفشل هذا المفهوم " الخلافة " لينتقصى لنا من بين الكلام عن الحضارة والقيم فكرة حرق الكتب وإتلافها وكأن الخلافة هي حرق الكتب ، وكان تأليف الكتب أو الكتابة دلالة الحضارة والرقى والتقدم . ولينتقصى لنا أن الكتابة هي تعبر عن المشاريع الحضارية .

وليرينا ما تراه عينه من سلبيات لنظم وحقب تاريخية مرت على الأمة الإسلامية لينسبها إلى الخلافة التي نعلم بها .

وهي انتقائيات ظالمة متعسفة ، كالظلمات بعضها فوق بعض ، فأولاً : الخلافة التي نعلم بها هي التي وردت في الحديث النبوي الشريف : " ثم تكون خلافة على منهاج النبوة " ، كل ما يرتبط بأقوال وأفعال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من قيم وأخلاق ودين وعبادة ومعاملات وسياسة واقتصاد هو والخلفاء الراشدين من بعده الذين هم أربعة ، ثم على مر العصور الإسلامية جاءت نماذج فردية فذة كعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أو المشوه تاريخه عمداً لأنه كان زم من فتوحات هارون الرشيد رحمة الله . وما عدا ذلك فلم يسمه نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم من الأصل خلافة ، بل سماه ملكاً عاصماً ، وهو الذي بدأ ببداية التوريث منذ عهد معاوية كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ملكاً جرياً ، والذي يجتهد العلماء في نسبته إلى طرق وأليات الحكم في هذا الزمان .

فالخلافة التي نعلم بها هي في تلك النماذج الراشدة ... هذه أولاً ، ولو أخذت أسوق إليك منهج تلك الخلافة الراشدة في السياسة وطرق الحكم وإنشاء الدواوين والاستفادة من الحضارات الأخرى والتي بدأت على يد عمر رضي الله عنه لما كفت المقالة ، ولكن عينا الكاتب الأديب بلل فضل لا ترى ذلك .

ولو أردت أن أسوق إليك روعة النظام القضائي الذي جعل من يهودي يقاضي أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ويدرك القاضي لليهودي في حادثة غير فردية لها أخوات كثراً ، لما وفيت ، ولكن عينا الكاتب الأديب بلل فضل لا تبصر هذا .

ولو أردت أن أتحدث عن قيمة العدالة الاجتماعية والترابط والتي تجعل أمير المؤمنين عمر يزوج ابنه من ابنة بائعة اللبن أو تجعله هو أو سابقه الصديق رضي الله عنهما يحملان على ظهورهما - وكلاهما العزيم وكبير القوم - أجولة الدقيق لفقيه في ظلام الليل في حوادث ووقائع لها ما يخصها وما يختلفها لما أحصيتها ، ولكن قلم الكاتب الأديب بلل فضل لا يكتب هذا .

حتى إن عرجت على ما لم أطلق عليه خلافة إسلامية وعده الكاتب الأديب ضمن عصور ممارسة الكتابة والإبداع لوجدت لك أسماءً تدرس هي وعياراتها وحضارتها بأكاديميات أوروبا من أمثال ابن الهيثم وابن سينا والخوارزمي وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم المئات في مختلف فروع العلم والحضارة ، إلا أن الكاتب الأديب لا يرى لذلك أثراً .

والخلاصة أنك تنتقي من وظائف الخلافة ما هو مرتبط بما تسميه التقدم أو المشروع الحضاري وتغفل عن جوانبها الشاملة سياسية أو اقتصادية أو تجارية أو مجال العبادة والمعاملات والأخلاق ، حتى الإطار الذي أردتنا أن نسير فيه " عمارة الكون " ونسبة للحضارة وأنت محق في جزء كبير من ذلك إلا أنك تنتقي منه ما له علاقة بظروف أو مواقف تاريخية معينة وتعزلها من سياقها للتثبت للجميع أن الحضارة الإسلامية ضد الفكر والإبداع ، وأنت تغفل قررناً من الدربة والإبداع والتلقي العلمي والعلمي والحضاري عاشتها الأمة الإسلامية حتى فيما أطلق عليه أنا مصدراً للسنة النبوية المطهرة ملكاً عاصماً أو جرياً وتنسبه أنت للخلافة التي نعلم بها فتنتقي بذلك مواقف بعينها أو إطاراً بعينه تحدثنا من خلاله عن الخلافة ، ثم تنتقي حقب تاريخية بعينها وتغفل غيرها لتصنم الخلافة بالعجز والديكتاتورية والاستبداد .

نموذج باز ، ومثال تجسيدي رائع للانتقائية في الكتابة العلمانية ، من مجرد مقالة للكاتب الأديب ، وعليها فقس لو أردت القياس .

### فرض فرضيات وهمية والبناء عليها

آخر ما يمكنني أن أتحدث عنه في نقد كتابات الأديب بلل فضل كنموذج وتجسيد للكتابة العلمانية ، هو فرض الفرضيات وتقعيد القواعد وإطلاق النظريات بناءً على أساس وهمية ، ليس لها أي أثر ولا دليل .

خذ على هذا مثلاً أو مثلاً :

في مقدمة مقاله : " مولانا التيس " يقول : " يستميت أنصار تيارات الشعارات الإسلامية منذ وصولهم إلى الحكم في إكساب قادتهم وشيوخهم حصانة ضد النقد اللاذع العنيف " .

طبعاً هذا الذي نسب إليه استماتة التيار الإسلامي فيه هو من باب التقعيد الذي يريد أن يجعله حقيقة بدائية ، لمجرد أن أدفع ضد من يسخر من قادتي ومشايحي أو أن أطلب منه الإنصاف وهو ينتقدتهم ، أو أرد على شتمته لهم وسخريته منهم بندق هذه الشتيمة أو السخرية ، حينها أتحول إلى تلك القاعدة التي أراد أن يؤصلها وهي أنني أجعل لقادتي ومشايحي حصانة ، وكأنه حلل على بلديه الدوح ، له أن يشتم ويتهك ويسيء ويسيء الرئيس بعده العبيط أو عبده الغشيم أو يقول له : " يا مرسى إنك لضعيف " ، وليس لك أن تدافع عن مرسى لأنك حينها تجعل له حصانة ضد النقد .

تقعيد ، ثم استخفاف بعقل القارئ حتى يضمن أن تسير المقالة على الوتيرة التي أراد أن يمضى على نهجه .

في نفس المقالة ، بل وفي ذات مقدمتها يضع نظرية أخرى ويفترض تحول الإسلاميين من الحديث عن سعة الصدر إلى تشجيع الحاكم على البطش بمعارضيه فيقول : " وبعد أن كانوا قبل وصولهم إلى الحكم يرون قصراً لاحص لها عن سعة الصدر والحلم والتحمل والتصدق بالأعراض والإحتساب عند الله ، أصبحوا فجأة لا يرون إلا المرويات التي تحض على ضرورة التأدب مع الكبراء والعلماء وتحذر من غضب الحليم وندعو الحاكم إلى أن يكون قوياً عنيفاً مع معارضيه " .

متغافلاً أنه لكي يصل إلى هذه الحقيقة التي لا مراء فيها عنده ، فلابد أن يكون قد قرأ وشاهد وتفصص في عشرات المقالات والأقوال والمواضف التي من الغريب أنك وأنت تعيش بين المسلمين لا تراها ، وإنما الذي تراه هو الدعاء لحاكم صالح أن يوفقه الله ، مع عشرات من النقد الداخلي لمواضف الرئيس أو لقادمة الدعوة الإسلامية المباركة .

الشاهد والخلاصة : وأستطيع أن أعد لك عشرات التقعيدات في حفنة مقالات كلها تقعيدات وهمية لم يصل لها آلية بحثية علمية ، وإنما هي قعدة مصاطب أجلس فيها أمخج وأخرج بنظرية وهمية ، ثم أعود فأناضح بها على القارئ مستغلاً إياه وسالكاً طرق الاستهبال العلماني السهلة حتى أثبت صحة ما أقول . ولتصبح كتابات الفاضل الأديب بلل فضل نموذجاً مثالياً على أخطاء الكتابة العلمانية ، وقانا الله شرعاً وسوانها ... آمين ...

وهو الجدير - سبحانه - بأن يقينا شرعاً ، وهو سبحانه العزيز القائل : " فأما الزيد فيذهب جفاءً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض " والله الحمد من قبل ومن بعد .